ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: http://www.jtuh.tu.edu.iq

The King Al-afdal Ibn Saladin: His rule and Personality 589-622 A.H. / 1192-1225 A.D. Between Critics and Fair Evaluation

Asst. Prof. Dr. Thawra Khatab Ali

University of Tikrit College of Education for Humanity science

* *Corresponding author: E-mail* :
dr.thora.kh@tu.edu.iq
07706134498

***Keywords*:**
Ayyubids
Al-afdal
Al- adil

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 9 May. 2021
Accepted 4 July 2021
Available online 22 Dec 2021
E-mail
journal.of.tikrit.university.of.humanities@tu.edu.i
E-mail : adxxxx@tu.edu.iq

A B S T R A C T

The king Al- afdal b. Saladin who succeeded his father Saladin as a Sultan for the Ayyubid state suffered from bitter criticism at the hands of his contemporary historians. His constant failures and losing his territories either at the hands of his brother Al-malik al Aziz and his uncle Al-Malik Al Adil made historians to criticize him, and accused him to fall under the influence of his vizer Dhiyaa Al-din Ibn Al- Athir. The present research manage to give a balance between the criticism and fair evaluation of Al-afdal, and show that Imad al-Din Al -Asfahani had much influenced the later historians and there are counter evaluation by the Mosuli historian Izz al-din ibn al-athir© 2021 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://dx.doi.org/10.25130/jtuh.28.12.1.2021.12

Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities Journal of Tikrit University for Humanities

حُكم الملك الأفضل بن صلاح الدين وشخصيته 589-622هـ/1192-1225م بين النقد والإنصاف

أ.م.د. ثورة خطاب علي/ جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الانسانية

الخلاصة:

عانى الملك الأفضل بن صلاح الدين الذي خلف والده سلطانا للدولة الأيوبية من انتقادات لاذعة على يد المؤرخين المعاصرين، بسبب إخفاقاته المستمرة وخسارته لأملاكه إما على يد أخيه الملك العزيز عثمان او عمه الملك العادل، وكانت كل خطواته السياسية وبالا عليه، مما جعل المؤرخين المعاصرين ينتقدونه ويتهمونه بالوقوع تحت تأثير وزيره ضياء الدين ابن الاثير.

يسعى هذا البحث إلى المقارنة بين النقد والانصاف الذي قدمه المؤرخون المسلمون تجاه دور الملك الافضل وشخصيته، وأظهر أن عماد الدين الأصفهاني كان له تأثير كبير على المؤرخين اللاحقين لأنه فقد مكانته المميزة التي كان يتمتع بها في عهد صلاح الدين. وبالمقابل فان هناك رواية مقابلة يقدمها المؤرخ عز الدين بن الاثير لا تؤيد ما ذهب اليه الاصفهاني. وسيتم مناقشة الآراء والمقارنة بينها للتوصل الى تقييم عادل للملك الافضل

المقدمة

من بين الشخصيات الأيوبية التي نالت حظا غير قليل من نقد المؤرخين القدامى والمعاصرين الملك الافضل علي بن صلاح الدين الايوبي، فهذا الشخص، الذي ورث اسم ولقب السلطان الخالد صلاح الدين الايوبي، قد باء بثقل هذه التركة، فأصبحت عباً على شخصه واسمه، فلم يستطع أن يحتفظ بما ولاّه ابوه من سلطان، واخذ يفقد ممتلكاته الواحدة تلو الأخرى، مما جعله في نهاية المطاف ينكفئ في زاوية نائية من الأراضي الأيوبية في سميساط في إقليم الجزيرة. ومما زاد في الصورة قتامة تخليه عن انتمائه للأيوبيين وتحالفه مع خصمهم الاسلامي الالد سلاجقة الروم.

وفي هذا البحث نحاول تفهم دور الملك الافضل وأسباب ما اعترى حكمه من فشل، والاهم بيان سبب وقوف بعض المؤرخين المسلمين البارزين أمثال ابن واصل وأبي شامة ضده. وهل هناك رؤية مغايرة لشخصية الأفضل قدمها المؤرخ الموصلي عز الدين بن الاثير، وهل بإمكان هذه الرواية أن تقدم عرضا مغايرا لسيرة واعمال هذا الملك الايوبي أم هي تنساق ضمن التصورات السائدة عنه.

أولا: ارتقاء الافضل الى الحكم وفقدانه له:

عاشت الدولة الأيوبية في السنوات القليلة التي تلت وفاة مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب (589هـ/1193م) مرحلة عصيبة في تاريخها؛ فلنحو خمس سنوات تقريبا أو أكثر قليلا دخل أبناء صلاح الدين في صراعات فيما بينهم، لينتهي هذا الصراع في النهاية باستحواذ الملك العادل سيف الدين أخي صلاح الدين الأصغر على السلطة العليا بين الايوبيين، وسيطرته على عاصمتي الدولة هما: دمشق والقاهرة، فضلا عن الاملاك الواسعة في اليمن والحجاز وإقليم الجزيرة. ولم يتبق من إرث صلاح الدين لأولاده الا حلب التي تمسك بها الملك الظاهر بن صلاح الدين بقوة، ورفض الاذعان لسلطة عمه العادل.([1])

أما العادل فبعد أن فرض سيطرته على المناطق التي يحكمها أفراد الأسرة الأيوبية الاخرون، أنشأ نمطا جديدا من الانظمة السياسية عندما وزع الحكم بين أولاده في حياته، فجعل ابنه الاشرف في اقليم الجزيرة، والمعظم عيسى في دمشق، والكامل محمد في مصر.([2]) وكان الافضل هو الخاسر الوحيد في صعود العادل إلى السلطنة، الأمر الذي دفع بعض المؤرخين للحكم عليه بأنه فاشل وغير كفء. لكن عندما نتتبع سيرة الافضل سنرى أن هذا الحكم القاسي تقف بالضد منه نصوص تاريخية أخرى تشيد بالأفضل وتبرز مواقف بطولية صدرت عنه.

ولد الافضل علي عام 565 / 1169–70 ، اي بعد وصول صلاح الدين الأيوبي إلى مصر وتوليه الوزارة فيها.([3]) ونحن لا نعرف شيئا عن والدة الافضل وتاريخ زواجها من صلاح الدين لكن ما نعرفه أن صلاح الدين كان في سن الثالثة والثلاثين عندما ولد له ابنه البكر.([4]) ولعل في ذلك مؤشرا على تأخر زواجه بما هو ليس مألوفاً في ذلك العصر. وأول ذكر للأفضل كان في مشاركته في عملية عسكرية خطيرة سبقت معركة حطين عام 583هـ/1178، أي في سن الثامنة عشرة من عمره، تم بموجبها اقتحام شمال فلسطين من قبل قوة من الفرسان المسلمين، وتصدت فيها لنخبة قوات الصليبيين الممثلين بالمقاتلين الاسبتارية الاشداء، واوقعت فيهم خسائر فادحة.([5]) وخطورة هذه العملية تمثلت بجرأتها في توغل قوة مقاتلة من الفرسان عمق الأراضي التي يسيطر عليها الصليبيون في شمال فلسطين، فقد كان المسلمون لا يقدمون على دخول هذه المناطق الا بجيش ضخم. ويظهر بوضوح مرافقة الافضل لوالده عند الانتصار في حطين وعملية تحرير مدن المملكة الصليبية. وعند تحرير عكا، التي هي اهم مدن المملكة الصليبية وميناءها الاساس، اختار صلاح الدين ابنه الافضل ليقوم بتحصين هذه المدينة وشحنها بالأسلحة.([6]) وكان الافضل حاضرا في معارك والده في الحملة الصليبية الثالثة وفي مواجهة ريتشارد قلب الاسد.([7]) وتلك ولا شك مهاماً شاقة لابد أن تكون قد اسهمت في نضج الافضل اداريا وعسكريا.

وفي الترتيب الاخير الذي لجأ اليه صلاح الدين– قبيل وفاته– قسّم الدولة بين ابنائه الثلاثة واخيه العادل، فجعل الافضل على دمشق مع لقب السلطنة، والعزيز في مصر، والظاهر في حلب. اما العادل فكانت اقطاعاته تتوزع بين حصن الكرك والشوبك في جنوب الاردن، واقطاعات واسعة في اقليم الجزيرة.([8]) فضلا عن ذلك كانت هناك اقطاعيات اصغر، فقد جعل صلاح الدين على حماة الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر، وعلى حمص شيركوه الثاني بن الناصر محمد بن شيركوه، وعلى بعلبك الملك الامجد بهرام شاه ابن فروخشاه.([9])

كانت اولى خطوات الافضل عشية وفاة صلاح الدين هو اخذ البيعة لنفسه من الامراء في دمشق، وأرسل سفارة إلى الخليفة العباسي الناصر لإبلاغه بوفاة والده وارفقها بهدية تتضمن درع صلاح الدين وخيوله.([10])

كانت أملاك الافضل تشتمل على مناطق واسعة في جنوب سوريا وفلسطين ، وكذلك أجزاء من لبنان الآن، وعدد من المدن الساحلية التي بقيت تحت سيطرة المسلمين بعد الحملة الصليبية الثالثة، وتمتد حتى أقصى شمال اللاذقية.([11]) ان خلافة الافضل لصلاح الدين وتوليه حكم اهم مدينة في دولته، وهي ايضاً أهم مدينة في بلاد الشام، بدا أنه في أقوى موقف لتولي قيادة الدولة المترامية الاطراف التي اشتمل عليها الحكم الأيوبي، ولكن وفي غضون سنوات قليلة نراه يفقد سلطته ونفوذه بسرعة لصالح عمه العادل، بفعل

سلسلة معقدة من الأحداث. اما العادل فقد كان قادرا على استغلال الخصومات والانقسامات بين الافضل وإخوته في القاهرة وحلب فضلا عن التغير الذي طرأ على الأوضاع السياسية كما سنرى.

بدأ أول تهديد للأفضل من أخيه الملك العزيز عثمان الذي سلمه والده حكم مصر. وكان المشكلة هي سعي العزيز للسيطرة على فلسطين، وفي مقدمتها القدس، فكان أول من نافس على السلطنة، فقد سعى مرتين لإزاحة اخاه من دمشق: الاولى في 590هـ/1194م و591هـ/1195م. وفي الكرّتين كان الافضل قادراً على المقاومة إلى حد كبير بفضل الدعم الذي قدمه له عمه العادل. وقد رتب العادل صلحا بين الاخوين في أعقاب فشل حملة العزيز الثانية على دمشق. وكان من بنوده أن يذهب العم مع العزيز الى مصر.([12]) لكن انتقال العادل الى مصر غير موقفه من ابناء أخيه، فقد انحاز الى العزيز، ولم يتردد عن المشاركة في هجوم ثالث على دمشق، فسقطت المدينة بأيديهم في صيف عام 592هـ/1196م ، وبالنتيجة ضاعت دمشق من أيدي الأفضل، ليعوض عنها تعويضا بخسا يتمثل بقلعة وبلدة صرخد في جنوب دمشق، بينما تولى العادل مكانه حكم دمشق.([13]) وبقي الافضل في هذا المكان الثانوي الأهمية نحو ثلاث سنوات مستسلما لقدره.

وجاءت الفرصة غير المتوقعة لتفسح المجال لطموحات الملك العادل ليتولى قيادة البيت الايوبي، فقد توفي الملك العزيز عثمان فجأة، وهو لما يتجاوز الثلاثين من العمر، اثر حادث صيد في اواخر عام 595هـ/1198م.([14]) وقد عين العزيز– وهو على فراش الموت– ابنه المنصور محمد وريثا له ، ولكن الصبي لما يتجاوز التاسعة بعد. وكان بحاجة إلى اتابك يدير دولته. وكان العادل حينها في حملة عسكرية في اقليم الجزيرة، ولم يكن حاضرا لفرض نفسه لتولي دور الأتابك، فضلا عن أن أمراء العزيز وكبار قادته قد تحفظوا في مسألة اختيار العادل اتابكا لأنه كان شخصية قوية واسعة النفوذ، ورجحوا عليه الملك الافضل الذي كان منكفأ في صرخد.[15]

وبدا وكأن الطريق قد اصبح ممهدا أمام الافضل أخيرا، فحظي بدعم أخيه الظاهر الذي كان يحكم حلب ، وكذلك من قبل امراء فرقة الصلاحية في مصر، فخرج من صرخد، ودخل القاهرة ونصب نفسه اتابكا للمنصور. وألحّ عليه الأمراء أن تكون الخطوة التالية هي الزحف على دمشق واستعادتها من ايدي العادل، لاسيما وأن العادل كان ما يزال بعيدا في اقليم الجزيرة.([16]) فاستمع الافضل لذلك وقرر الزحف الى دمشق للاستيلاء عليها. إلا إن العادل نجح في الوصول الى دمشق قبيل قدوم الافضل مع قواته. وتبع ذلك حصارٌ استمر نحو ستة أشهر. وفي النهاية تمكن العادل من كسر الحصار، لا بل وتعقب الافضل الى القاهرة.([17]) وعند اسوار القاهرة وقع الافضل اتفاقاً مع عمه العادل يحتفظ بموجبه الافضل

بصرخد ويحصل ايضا على مناطق أخرى في اقليم الجزيرة تتمثل بميافارقين وسميساط، مقابل تنازله عن القاهرة.([18])

وإثر ذلك دخل العادل إلى القاهرة ليس أتابكا للمنصور بن العزيز وانما بوصفه السيد الاعلى للدولة الايوبية، فأزال اسم المنصور محمد من الخطبة والسكة ، واستبدله باسمه.[19] وعندما اعترض عليه الامراء رد عليهم بقوله:

" إنه قبيح بي أن أكون أتابكا لصبي مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو بالميراث وانما هو لمن غلب، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخي السلطان الملك الناصر– رحمه الله – صاحب الامر غير أني تركت ذلك اكراما لأخي ورعاية لحقه، فلما حصل من الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدي أولاد اخي، فمشّيت الأمر الى آخره، فلم أر الأمر يصلح الا بقيامي ونهوضي بأعبائه"[20]

واسند العادل حكم مصر لابنه الكامل، بينما جعل في دمشق ابنه المعظم عيسى[(21)] وحاول الافضل مرة أخرى العودة الى الساحة السياسية، ففي عام 597هـ/1201م ، حاول بمعونة أخيه الظاهر، وبدعم من العديد من الأمراء فضلا عن حكام حمص وحماة وبعلبك الأيوبيين من حصار دمشق ثالثةً. وكانت المدينة تحت سيطرة الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل. وضُرب الحصار على المدينة. وكانت الظروف مهيئة لسقوطها بأيدي الافضل والظاهر، إلا إن التنافس والغيرة التي استشرت بين الاخوين منعت من حسم الحصار بعملية مباغته، وبالمقابل نجح العادل باتباع لعبة دبلوماسية ذكية للإيقاع بين الافضل والظاهر فما كان منهما الا أن تركا الحصار وغادرا ساحة المعركة.([22]) وتم عقد تسوية رابعة بين الافضل وعمه العادل، أقرّ بموجبها الافضل بعمه سيداً عليه، مقابل الاحتفاظ فقط بسميساط في اقليم الجزيرة، وهو مكان ناء تماما عن المركز الرئيسي للسلطة الأيوبية. بمعنى أن الافضل قد خرج من جغرافية التنافس الايوبي، ولن يعود ليشكل أي خطر محتمل في المستقبل على عمه العادل العادل. وفي سميساط وجد الافضل نفسه وحيدا منبوذا، فلجأ الى خطوة سياسية غير موفقة تخالف تماما تقاليد الاسرة الأيوبية، فقد اعترف في عام 600هـ /1203م بسلطان سلاجقة الروم عليه، فنادى بالخطبة لهم، وقطع صلاته مع الأيوبيين. وهؤلاء السلاطين كانوا في عداء دائم مع الايوبيين.[23]

وانسجاما مع هذا التحالف وجد الافضل في عام 615هـ / 1218م الفرصة ماثلة مرة اخرى للعودة الى المشهد الأيوبي، فقد توفي أخوه الملك الظاهر صاحب حلب، فانضم الى كيكاوس سلطان سلاجقة الروم في محاولة للاستيلاء على حلب وأراضيها. واتفقا على أنه إذا تم الاستيلاء على حلب ، فسيصبح الافضل حاكمًا عليها ويعلن الولاء للسلطان السلجوقي، لأن أهل حلب لن يقبلوا تولي غير الايوبيين على

مدينتهم.[24] ونجح كايكاوس في الاستيلاء على بعض أملاك حلب، الا أنه فشل في أخذ المدينة، اذ تعرض التحالف الى هزيمة قاسية على أيدي الملك الأشرف بن العادل ، فانكفأ الافضل الى بلاد الجزيرة وقنع بالبقاء في سميساط حتى توفي هناك في 1225/622 .([25])

ثانيا: شخصية الافضل بين النقد والانصاف

هذا العرض المجرد للأحداث يثير التساؤلات حول شخصية الافضل وسبب خساراته المتواصلة، وانعدام نجاح أي من خططه. وستؤثر الإجابات عن ذلك في فهمنا لمسؤولية الافضل في النتائج المترتبة على سياساته، وتحديدا في فقدانه لسلطته ومناصبه. وفحوى الأمر أن معظم المصادر التي نقلت الحوادث السابقة، ولا توضح الظروف المصاحبة لهذه النتائج السلبية التي تمخضت عنها محاولاته المتكررة لإثبات نفسه في معترك الصراعات السياسية الايوبية– الأيوبية. وكان التفسير الاساسي والجاهز هو الحكم على شخص الافضل بأنه رجل ضعيف قليل الخبرة والتجربة. واقصى تبرير للدفاع عن الافضل ذكرته المصادر هو القول بأنه كان عديم الحظ.

ولتأكيد التفسير لفشل الافضل اتفقت معظم المصادر على القول بأنه كان ضحية مستشاريه الذين تحكموا به وبقرارته. وبالتأكيد تأتي شخصية وزيره ضياء الدين بن الاثير في مقدمة أولئك الذين يلقي عليهم المؤرخون باللائمة.([26]) وأن الافضل قد سمح لنفسه أن يقع تحت تأثيرهم ويتخلى عن قرارات صائبة كان قد عزم على اتخاذها.

فابن واصل(المتوفى 1298/697) يلخص الدور الذي لعبه ضياء الدين بالعبارة الاتية

"كان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الملك الأفضل شابا غرّا، فحسّن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجدّ له أمراء وأصحابا غيرهم، وقال: هؤلاء خواصّ السلطان وينظرون إليك بتلك العين، ويعتقدون أن حقّهم واجب وجوب الدين، وهم – بحكم المعرفة لك من الصغر – يتبسّطون ويشتطّون ولا يقنعون، وأعمال دمشق لا تسعهم، وجميعها لا تقنعهم، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع؛ وأما الغرباء، فإنهم يقنعون بأي شيء أعطيتهم، ويعترفون بحقك ويعظمونك». وساعده على هذا القول جماعة من أصحابه ممن لا رأى عندهم ولا معرفة. فأصغى الملك الأفضل إلى هذا القول، وأعرض عن أصحاب أبيه.([27])

أما في التاريخ الصالحي، فيعيد صياغة المسالة بصورة اكثر حدة حينما يقول:

"كان للملك الافضل وزير من أهل الجزيرة غاش، فأشار عليه بأبعاد أمراء ابيه واكابر أهل دولته، وحمله على ان يستجد أمراءً واصحاباً من مماليكه المستجدين، واخبره أن امراء ابيه يشتطون عليه ولا يرضون منه بالكثير، واعمال دمشق لا تسعهم، وإنما تسعهم أعمال مصر،... فاغتر الملك الافضل بقوله. وكان ذلك الخطأ البين والتدبير الفاحش السيء".([28])

وفي موضع أخر يقول ابن واصل معلقا على انصراف الافضل الى اللهو وتجاهله مصالح الرعية، وتفويضه ضياء الدين بإدارة شؤون الدولة قائلا: "وكان الجزري سيئ الرأي، فاسد التدبير، رديء السيرة، فتشعبت بسببه الامور وفسدت المملكة."([29])

وتحدد المصادر تأثير ضياء الدين على الافضل في ثلاثة قرارات سياسية خاطئة تفسر وقوع الانشقاق بين الاخوين العزيز والافضل. أولاً : كان ضياء الدين هو الذي نصح سيده بالاستغناء عن خدمات القادة الكبار الذين خدموا والده صلاح الدين، ووضع رجال جدد في مكانهم. نتيجة لذلك انتقل عدد من الامراء الدمشقيين والإداريين إلى القاهرة ، وهناك حرضوا العزيز للمطالبة بالأحقية ان يتولى قيادة الأيوبيين.([30])

ثانياً: يبدو أن الوزير قد أقنع الافضل بنقل السيطرة على القدس، التي كانت آنذاك جزءاً من أراضي دمشق إلى العزيز في القاهرة. لكنه تخلى لاحقا عن هذا العرض، فكان ذلك أحد الأشياء التي أثارت استياء العزيز ضد أخيه وعززت من تصميمه على مجابهته عسكريا. وسبب هذا المقترح الغريب هو أن صيانة اسوار المدينة المقدسة وحمايتها تقتضي نفقات كبيرة، وأن الافضل سيوفر على نفسه هذه الاموال إن جعلها تحت سيطرة اخيه العزيز. وعندما وصل العرض السخي للغزيز تقبله بامتنان واستعد للتقدم وضم القدس ففوجئ بتغيير الافضل لرأيه، مما اثار استيائه وبدأت المنافرة بين الأخوين.([31])

وتجلى المظهر الثالث لتأثير ضياء الدين على حاكم دمشق عندما بدأت الأعمال العدائية بين الإخوة. لقد ذكرت المصادر أن الافضل كان يميل إلى عدم المقاومة والتنازل لأخيه العزيز عن رموز السيادة. الا ان مستشاريه ، "ولا سيما وزيره ضياء الدين بن الأثير"، نصحوه بالمقاومة بوصفه الابن البكر لصلاح الدين وهو احق من أخيه(العزيز) في الخطبة والسكة.([32]) ويذكر عماد الدين الاصفهاني رئيس ديوان الانشاء في عهد صلاح الدين أنه اشار الى الافضل بسلوك سبيل الصلح مع العزيز، فقد طلب منه أن يأذن له بالكتابة إلى أخيه – "إنه لن يجيب على قلمي بالسيف"– فوافق الافضل في البدء، الا انه تخلى عن ذلك تحت تأثير مستشاريه الذي اتهموا الاصفهاني بالانحياز للعزيز.([33])

ومما سبق تظهر امامنا صورة حاكم عاجز عن اتخاذ قراراته الخاصة والحاسمة، يسيطر عليه المستشارون الباحثون عن مصالحهم الشخصية وهذا ما تعززه رواية تظهر الافضل، وبمجرد زوال اول

تهديد من اخيه العزيز عام 590هـ/1194م ، ينصرف إلى حياة اللهو والشرب والقيان، وسلّم إدارة مملكته إلى وزيره، الذي كان يحكمها برأيه الفاسد.([34]) وبالمقابل فان المصادر تتحدث عن تحول مفاجئ في شخص الافضل، حيث تاب، كما يقول ابن واصل " من غير سبب يعلم، وازال المنكرات، وأمر بإراقة الخمور وبضرب آنية الشرب دراهم ودنانير في دار الضرب، واقبل على الزهد والعبادة، ولبس خشن الثياب، وشرع في نسخ مصحف بيده واتخذ لنفسه مسجدا يخلو فيه لعبادة ربه تعالى، وواظب على الصيام في اكثر الاوقات وجالس الفقراء [الصوفية].([35]) لكن وفي هذا السياق لم تستوعب المصادر او تُثني على هذا التحول، لا بل نجدها تبدي استغرابها منه.[36]

وعاد العزيز في العام التالي (591هـ/1195م) بتصميم متجدد لغزو بلاد الشام تحت تحريض أمراء ابيه من الصلاحية، فنصح المستشارون الافضل بالنزول عند طلب أخيه بأن تكون الخطبة والسكة باسمه من أجل ضمان بقاء حكمه في دمشق، فالعزيز هو صاحب الأراضي المصرية التي تتفوق اقتصاديا على بلاد الشام، فضلا عن أن أغلب أمراء والده قد انحازوا للعزيز. لكن الافضل ، ومع ذلك ، اتبع مرة أخرى نصيحة وزيره بالاستنجاد بعمه العادل ضد اخيه. فكان كما يقول المقريزي "قد افسد احوال دولته برأيه الفاسد"[37]. في نهاية المطاف أدى إلى سقوط حكم الافضل.

كانت كراهية الوزير ضياء الدين بن الاثير من قبل خصوم الافضل شديدة للغاية، لذلك عندما سقطت دمشق على ايدي تحالف العزيز والعادل في 592هـ/1196م، تم تهريبه مخبأ في صندوق خاص بالأفضل ثم فر إلى بلده الأم الموصل.[38]

ولم تقتصر هذه الصورة على المصادر الاولية، فنجد أن المستشرق البريطاني هاملتون جب تقبل روايات هذه المصادر و ادان (عجز) الافضل وانغماسه في الملذات قائلا "أن سوء حكمه وضعفه أديا الى تأليب عساكر صلاح الدين ضده".([39])

ويقول قاسم عبده قاسم في تقييمه للأفضل" نحن أمام شخصية متطرفة تنتقل من النقيض الى النقيض، كما تحمل الكثير من دلائل الضعف وعدم الثقة بالنفس.([40])

ثالثا: وجهة النظر البديلة للأفضل؟

إن أي تقييم عادل لشخصية الافضل يجب أن يأخذ بنظر الاعتبار العوامل الاتية:

أولاً: ان مسألة اتفاق المصادر بشأن الطريقة الذي فقد فيها الافضل سلطته، وإجماعهم على الحكم على شخصه هي مسالة لافتة للنظر؛ فنجد أن أبا شامة وابن واصل وسبط بن الجوزي المعاصرين

للأحداث، والمقريزي المؤلف المتأخر (ت 1442/845) يقدمون إلى حد ما روايات وتفسيرات متماثلة، ووحده ابن الاثير– المعاصر كذلك– الذي يقدم تصورا مختلفا. ومن الواضح أن المؤرخين الذين سبق ذكرهم قد نقلوا عن عماد الدين الاصفهاني الكاتب، الذي بقي في دمشق حتى وفاته في عام 599هـ/ 1201م. ومن المفهوم أن الاصفهاني كان من بين أبرز من تضرر من التغيير الذي حدث بعد وفاة صلاح الدين وتولي ابنه الافضل الحكم. لأن الوزير الجديد ضياء الدين بن الاثير قد ازاحه وحل محله، ففقد الاصفهاني منزلته الرفيعة في ديوان الانشاء– التي تمتع بها في عهدي نور الدين وصلاح الدين، اما الوزير ابن الاثير فلم يكن –برأي الاصفهاني– الا شابا غرا – واذا عرفنا أن ضياء الدين بن الاثير قد ولد سنة 558هـ/1163 فان عمره قد تجاوز ال32 عاما، وهو ليس اذن صغير السن. لكن إذا عرفنا أن الاصفهاني قد ولد 519هـ/1126م اي أنه اكبر من ابن الاثير بنحو اربعين عاما، فليس من المستغرب إذن ان ينظر اليه باستخفاف، وان ينتقد تقريب خليفة صلاح الدين له وتخليه عن رجالاته السابقين.

ووحده المؤرخ عز الدين بن الأثير (ت 1233/630) من قدم لنا بعض الروايات المستقلة عن الاتجاه السائد في الحكم على الافضل. ومن اللافت للنظر أن عز الدين كان في دمشق خلال الهجوم الأول عليها من قبل العزيز، بمعنى أنه كان شاهد عيان على ما يجري من احداث.[41] ومن جانب آخر تبدو رواية ابن الأثير مخيبة للآمال، فهو لا يتحدث من قريب او بعيد عن أخيه ضياء الدين وزير الافضل، فقد كنا نتوقع ان يقدم معلومات مفصلة تدعم وجهة نظر أخاه في الحوادث بمعزل عن التفسيرات التي قدمتها المصادر الأخرى.([42]) لكن ما قدمه، رغم ذلك ، هو نص وصفي إلى حد كبير يدعمه في بعض الأحيان بتعليقات تصدر عن وجهة نظر بديلة لوجهة نظر بقية الآخرين، كما سنرى:

مما لا شك فيه أن عز الدين بن الاثير لم يسير على خطى المصادر الاخرى في الحديث عن سيطرة ضياء الدين وتحكمه بشخصية الأفضل، فهو يركز على انحياز القادة الصلاحية للعزيز على حساب الافضل، وتغريره بهم لكي يجعلهم يتخلون عن الافضل ويغادرون دمشق، فمع أنه يخبرنا أن الامراء الصلاحية قد استاءوا من الافضل لأنه طرد بعض أولئك الذين كانوا في خدمته سابقًا، لكنه يشدد على الطريقة التي حرضوا فيها العزيز من خلال الادعاء بأن اخاه يخطط لاحتلال مصر وانتزاعها من يده. وان الأمراء الصلاحية حثوا العزيز على ضرورة أخذ دمشق قبل أن يبادر الافضل لتحقيق مخططه في الزحف الى مصر.[43] علاوة على ذلك، يدّعي ابن الأثير أن تقريب العزيز للصلاحية قد جعل مجموعات أخرى تتخلى عنه بمناسبة هجومه الثاني على دمشق وتحديدا المماليك الاسدية. ويبدو أن ابن الاثير قد لجأ الى صرف الانظار عن الافضل وأخطائه ودور اخيه ضياء الدين وجعل المشكلة مرتبطة بأمراء الصلاحية والعزيز.[44]

والجدير بالذكر أن الملك العادل لا يظهر في اضواء ايجابية في رواية ابن الأثير للحوادث، سواء عندما توجه لمد يد العون للأفضل في 591هـ / 1194م ، او عندما هاجم العزيز دمشق في المرة الثانية. فوفقا لابن الأثير، اتفق العادل مع ابن أخيه في دمشق، أنهم إذا هزما العزيز ، فإن مصر سوف تصبح من حصة الافضل وأن العادل سيحكم دمشق. لكن عندما رأى مدى شعبية الافضل وحب الجيش له، أنتابه القلق من أن الافضل سوف يخرق الاتفاق ولن يعطيه دمشق. لذلك تآمر مع العزيز وكتب له أن يثبت في مركزه وتكفل بأنه سيصرف الافضل وغيره عن مقاتلته، ورتب بطريقة تطيل الحملة وتمنع وقوع هزيمة فاصلة للعزيز.[45] وقد رتب العادل أن يوفد العزيز الى اخيه وفدا للصلح لا يمكن أن يرده، ويتمثل بالقاضي الفاضل الشخصية الاهم في زمن والده صلاح الدين، فوقع الاتفاق ان يبقى العادل في مصر بمعية العزيز، فالعادل قد ادرك ضعف العزيز وانحياز الكثير من الامراء الى الافضل، فاراد ان يبقى في مصر ليمنع تكرار حملة عسكرية جديدة من الافضل قد تقوي من مركزه وتحول دون تحقيق العادل لطموحاته المستقبلية.

ولم يكد يمضي وقت قليل حتى تبدلت التحالفات، ومضى العادل والعزيز صوب دمشق لانتزاعها من الافضل في حملة 592 هـ/1196م كما سبق. وهنا يحدد ابن الأثير بأن السبب الرئيس لخسارة الافضل هو ثقته المفرطة بعمه العادل وعدم تنبهه الى اطماعه التي كانت ماثلة امام اخويه الظاهر[46] والعزيز منذ البداية. وقد تحقق اقتحام دمشق بسبب تآمر العادل مع أحد أمراء الافضل وهو العز بن أبي غالب الحمصي الذي كان مشرفا على الباب الشرقي من دمشق،([47]) ويذكر ابن الاثير أن " الافضل كان كثير الاحسان اليه والاعتماد عليه والوثوق به."([48]) فدخل العادل والعزيز دمشق وقاما بخداع الافضل ليقوداه إلى التفكير في أنهم سوف يسمحان له بالاحتفاظ بها، ونص عبارة ابن الاثير هو: "أوهما الأفضل أنّهما يبقيان عليه البلد خوفًا أنّه ربّما جمع من عنده من العسكر وسار بهما، ومعه العامّة، فأخرجهم من البلد، لأنّ العادل لم يكن في كثرة."([49])

وبغض النظر عن مصداقية ابن الاثير او لا في تقييمه لموقف العادل والعزيز، فانه انما اراد ان يظهر العادل بصورة المخادع، وأنه لجأ الى سبل ملتوية أبى الافضل أن يتبعها.

وينفرد ابن الاثير ثانية بإيراد رواية تعمق من صورة خداع العادل، فبعد السيطرة على دمشق، تبدر من الملك العزيز وهو في حالة من السكر، اشارة تفيد بنيته اعادة دمشق لأخيه الافضل، فما كان من العادل الا ان توجه الى ابن اخيه – وهو ما يزال في حالة سكر– فانتزع منه اقرارا بأن تكون دمشق له.([50]) ومن الواضح ان ابن الاثير ينوه الى استغلال العادل حالة فقدان الوعي نتيجة الخمر التي كان عليها العزيز، فجعله يتنازل له عن دمشق. وكمبرر للاستيلاء على دمشق، زعم العادل أنه لم يأخذ دمشق الا

لخوفه من الأفضل قد خطط لقتله. لكن هذا الأخير أنكر ذلك.([51]) ولا يوضح ابن الأثير رأيه بهذا الاتهام، لكن ليس من الصعب تخمين أن صياغته لهذه الرواية هدفها النيل من العادل ولم يؤيد امكانية تفكير الافضل بهكذا عمل.([52])

وعلى الرغم من كل تلك الاخفاقات التي عاشها الافضل فان ابن الاثير يعود ليؤكد استمرار شعبية الافضل ومحبة الناس له، ففي حديثه مع بداية روايته عن كيفية مجيء الافضل إلى مصر كاتابك في أعقاب وفاة العزيز في 595هـ/1198م ، يخبرنا ابن الأثير أن الأفضل كان محبوبًا إلى النّاس وانهم كانوا يريدونه، وقد" وصله رسل الأمراء من مصر يدعونه إليهم ليملّكوه، وكان السّبب في ذلك أنّ الأمير سيف الدّين يازكج – مقدّم الأسديّة، والفرقة الأسديّة والأمراء الأكراد يريدونه ويميلون إليه، بينما المماليك النّاصريّة الّذين هم ملك أبيه يكرهونه"([53])

بالمقارنة مع مصادرنا الرئيسية الأخرى ، فإن ابن الأثير يقدم رواية تعاطفا أكثر مع الأفضل فهو ينتقد العادل من جهة ويبين بأن قطاعات من الجيش تؤيد الافضل، وفي مقدمتهم أمراء الاسدية والاكراد. وبالتأكيد إن ولاء هؤلاء للأفضل مرتبط بولائهم لوالده وايضا لمزايا في شخصه وليس كما تنساق بقية المصادر لنفي اي امكانيات شخصية له.

بطبيعة الحال ، لا يعني ذلك أن ابن الأثير كانت منحازا الى الافضل، فهو بالأصل لم يكن متعاطفا مع شخصية صلاح الدين وسلطانه. فقد برهنت الدراسات الحديثة بأن موقفه يمثل وجهة نظر حكام الموصل الزنكيين، الذين حاصر صلاح الدين مدينتهم لثلاث مرات، وانتزع منهم املاكهم واجبرهم أن يكونوا اتباعا له.([54]) لكن روايته–مع ذلك– تظهر أن من الممكن تقديم وجهات نظر بديلة وتقييمات مغايرة لشخصية الافضل بما يوازن الصورة التي رسمتها المصادر الأخرى، التي تظهر الأفضل بمثابة الحاكم الذي يهمل الشؤون العامة وينغمس سواء في حياة المتعة والملذات أو يتفرغ للعبادة ويترك الاضطلاع بشؤون الحكم لوزيره ابن الاثير. وهذه الصورة قد اسهم في رسمها عماد الدين الاصفهاني كاتب صلاح الدين، الذي كان يتمتع بنفوذ كبير بوصفه رئيس ديوان الانشاء واحد المقربين من مصدر القرار، والذي فقد تلك المكانة عندما ازاحه الوزير الجديد ضياء الدين بن الاثير فانكفا في منزله يراقب الاحداث ولم يغادر دمشق كما فعل الاخرون، حتى توفي في عام 597هـ/ 1201م. وايضا كرس هذه الصورة المؤرخون المتأخرون الذين تجلت امامهم خلاصة الاحداث بانتصار العادل على الافضل، وفسروا الاحداث التي سبقت ذلك على ضوء النتائج.

وثمة عامل آخر اسهم بإلقاء ظلال قاتمة على شخصية العاضد. فكون الافضل ابن مؤسس الاسرة الحاكمة ومثال الجهاد ومحرر القدس صلاح الدين الايوبي، سيكون من الطبيعي ان يشعر المؤرخون بالامتعاض من أي خطأ يرتكبه خليفته، فالمقارنة مع والده لم تكن بحال لصالح الافضل ودفعت المؤرخين لانتقاده بقسوة.

لكن من اللافت للنظر ان هذه التفاصيل القاسية التي طالت شخصية الافضل تختفي عندما يتجه المؤرخون انفسهم لتقديم تأبين او نعي له عند وفاته، فنجد أن ابن واصل وأبا شامة على سبيل المثال، وهم من رسخ صورة الافضل بوصفه الحاكم الضعيف وغير المؤهل، أبناءه بالكثير من التكريم، فبدلاً من العودة الى الصورة التي كرستها كتاباتهم بأنه مهمل لشؤون الحكم وغارق في المتع حينا وفي العبادة حينا آخر، نجد ابن واصل يقدم لنا صورة مختلفة عندما يصفه بأنه كان "فاضلا متأدبا، حليما عادلا، متدينا قل أن يعاقب على ذنب، وكان يكتب خطاً حسناً. وبالجملة فقد كان مستجمعا لفضائل ومناقب تفرقت في كثير من الملوك"[55] لكن يعلل فشله بالقول:

"وكان مع ذلك قليل الحظ والسعادة جدا وهذا هو الغالب في أهل الفضل"[56]

واذا كانت الصفات السابقة مصدر اعجاب ابن واصل، فإنها بلا شك ليست الصفات التي تحقق لصاحبها التقدم في عالم السياسة الشائك، لكن لا يظهر الافضل هنا عاجزا قليل الدراية.

ومن الاعتراضات التي وجهها المؤرخون الى الافضل القول بأنه تنازل لعمه بالركوب عن السناجق السلطانية، بينما يسير هو في ركابه كما لو كان في خدمته.[57] لقد نظر كل من ابن واصل وابو شامة الى ذلك بأنه فعل غير صحيح ، الواضح أنهما اعتبرا سلوك الافضل تجاه عمه في هذه المناسبة هو تجاوز لما هو مستحقً – والعبارة التي يستخدمها ابن واصل هي "بالغ في اكرام عمه"[58] و ربطوا ذلك باستياء العادل المتزايد مما رآه من ادارة ابن أخيه لدمشق. ويشرح أبو شامة توقير الافضل لعمه بأنه محاولة استرضائه بعد رفضه طلبه بإقالة وزيره ضياء الدين. بقوله:

"وكان العادل أبدا يشير بصرف الوزير الجزري وكان قد استولى على الأفضل فلم يقبل فكان العادل أبدا مغتما لذلك فبالغ الأفضل في إكرام عمه وإزالة غمه حتّى ترك له سنجقه وصار يركب في خدمة عمه.[59]

وعند مناقشة هذا السلوك الذي ابداه الافضل تجاه عمه يتضح بأنه نوع من التكريم للعادل بوصفه كبير العائلة والساعد الايمن لابيه صلاح الدين، وانه ايضا سعي لاستمالة العادل بحكمته ونفوذه الكبير لتقديم المساعدة التي كان الافضل بأمس الحاجة اليها. وهو ايضا ينسجم مع شخصية الافضل التي تمتاز باللباقة والادب التي تحدث عنها ابن واصل في التأبين الذي اشرنا اليه. واذا عدنا الى رواية ابن الأثير

فاننا لا نجد اشارة الى موضوع السناجق وترك الأسبقية للعادل في الموكب ، ويزيد ابن الاثير بالاشارة الى الثقة الكبيرة لدى الافضل تجاه عمه فسمح له بالدخول الى القلعة، فقال: "وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوّابه بإدخاله إلى القلعة".([60])

إذا كان هذا الفعل من الافضل هو قصور نظر وعدم تقدير لخطورة العادل على دولته ، الا ان الافضل كان حريصا منذ توليه الحكم على ان لا يظهر منفردا في القرارات لكي لا يثير سخط بقية افراد الاسر، فعندما بعث الى الخليفة العباسي الناصر لدين الله يعلمه بوفاة والده أعلم اخوته في حلب ومصر بمسير رسوله "حتّى لا يظنّ أنه انفرد بسوله وقصد مداراة إخوته" [61] ولابد ان نرى في ذلك تعبيرا عن ذكاء الافضل فقد سعى ولا شك للحصول على اعتراف الخليفة بالأفضل كخليفة لوالده ، كذلك لتحسين العلاقة التي شابها التوتر في الايام الاخيرة لوالده مع الخلافة. وتظهر ايضا حرصه لإثبات أن السفارة لم تكن مخصصة لمصلحته الخاصة وحدها.

اما علاقة الافضل بالعزيز التي تحدث عنها المؤرخون بوصفها من جوانب ضعف شخصيته فان استعداد الافضل للتنازل لأخيه الاصغر عن الخطبة والسكة يبدو ذكاء سياسيا نتيجة معرفة الافضل بضعف مركزه بعد انحياز الفرقة الصلاحية والكثير من الامراء الى صف العزيز.[62] والرغبة لتجنب الصراع واراقة الدماء بين الاخوة. وهو تَمثّلٌ لنهج والده في تجنب الاقتتال بين المسلمين.

أما الملمح الاخير للحكم على شخصية الافضل فهو تصويره جهله بمخططات عمه العادل للانقضاض على الحكم وانتزاعه من ابناء صلاح الدين. وفي هذا الشأن يستشهد ابن الاثير بنصيحة الملك الظاهر لأخيه الافضل بأن لا يثق بعمه ولا يركن اليه. وأنّه بلغ من وثوقه به أنّه أدخله بلده وهو غائبٌ عنه، ولقد أرسل إليه أخوه الظّاهر غازي – صاحب حلب – يقول له: أخرج عمّنا من بيننا فإنّه لا يجيء علينا منه خيرٌ، ونحن ندخل لك تحت كلّ ما تريد، وأنا أعرف به منك، وأقرب إليه، فإنّه عمّي مثل ما هو عمّك، وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنّه يريد لنا خيرًا لكنت أولى به منك. فقال له الأفضل: أنت سيئ الظّنّ في كلّ أحد، أيّ مصلحة لعمّنا في أن يؤذينا؟ ونحن إذا اجتمعت كلمتنا، وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلّنا، ملك من البلاد أكثر من بلادنا، ونربح سوء الذّكر. وهذا كان أبلغ الأسباب، ولا يعلمها كلّ واحد. ([63])

وتظهر هذه الرواية العادل باعتباره شخصية صاحبة مخططات وخداع، كان يعتزم منذ البداية انتزاع الحكم من ايدي أبناء أخيه. وهكذا رأي جدير بالمناقشة لان ذلك سيقودنا الى تقييم أكثر عدالة لشخصية الافضل. لقد كان مفتاح تحول دعم العادل من الافضل إلى العزيز هو الامر الحاسم في اضعاف موقف

الأفضل. ووفق رواية ابن الأثير السابقة نراه قد بالغ في الوثوق بعمه ، وكان هذا سبب فقدانه لدمشق. وان الملك الظاهر صاحب حلب لم تخدعه سياسة وتودد العادل على الرغم من كونه زوج ابنته الاثيرة ضيفة خاتون.

ويرى عاشور أن الملك العادل لم يكن راضيا عن وضعه، وإن نصيبه من تركة صلاح الدين لم يتناسب واهميته بالنسبة للدور الذي قام به في حياة صلاح الدين. ولكن العادل كان ذا مكر شديد وخديعة، صبورا اذا اناة وتؤدة... فلم يشأ ان يتعجل الحوادث عقب وفاة اخيه واخذ يتصرف بأناة وريثما تتضح الامور.[64] لكن هذا لا يتفق تماما مع الحقائق. اذ لا يمكن ان ننكر بحال أن العادل كان اكبر افراد الأسرة بعد وفاة شقيقه صلاح الدين، وكان من الطبيعي أن تكون لديه طموحات ليصبح سلطانا اعلى للأيوبيين ، لكن طريقه إلى القمة لم يكن ممهداً منذ البداية. فقد كان صلاح الدين قد عين أبناءه في مراكز القوة الرئيسية في الدولة فقد تولى العزيز حكم مصر، بينما اصبحت دمشق قاعدة الافضل وحلب للملك الظاهر. ولم يدر في خلد أحد أن يغادر العزيز المشهد ويفقد الافضل ممتلكاته ويفشل في كل المواجهات التي خاضها، ويدخل في خصومات مع اخوته، مما اتاح للعادل ان يمضي خطوة لخطوة لاقتناص الفرص السانحة لصالحه بما يقوي مركزه ويضاعف من طموحاته.

وقد نشأ ذلك بفعل الظروف السياسية. فعندما جاء العادل إلى مصر برفقة العزيز كما سبق القول، كان من المتعذر أن يفكر بأنه سوف يصبح حاكما لمصر مع وجود العزيز. ومن الواضح ان العادل استغل الظروف المؤاتية ليتقدم ويتولى السيطرة على الدولة الايوبية.

ومع ذلك ، لا يتعين على المرء أن يقبل نظرة ابن الأثير إلى العادل بكليتها، فان العادل كان يقف الى جانب الافضل في بداية الامر. وتدخل لمصلحته في المرحلة الأولى، لكن ، وبعد الحملة الثانية على دمشق من قبل العزيز ، رأى العادل أن شروط السلام تنص على ذهابه للعيش في مصر إلى جانب العزيز. وبمجرد وصوله ، سرعان ما تبنى وجهة النظر المصرية وأيد ، أو حتى حرض ، العزيز في طموحه للإطاحة بالأفضل في دمشق ، حتى تمهد طريقه امامه في النهاية للوصول الى السلطنة بعد وفاة العزيز.

أما بالنسبة للظروف السياسية والاقتصادية الأساسية فمن المهم ان نلقي الضوء عليها لإعادة تقييم الملك الافضل، فهناك ثلاث قضايا تستحق مزيد من التعليق:

اولا: من الذي بدأ بالإعمال العدائية؟، هل هو الافضل ام العزيز. مما لا شك فيه ان العزيز هو من بدأ مهاجمة املاك اخيه. وكان من المتوقع أن تؤدي وفاة صلاح الدين للتوتر بين الأقارب ومن الغريب

أن لا يدين المؤرخون مهاجمة العزيز لأملاك اخيه قدر ما اثارهم ميل الافضل لتسوية الامور حتى لو اضطر لتقديم التنازلات. ولعل تفسير ذلك هو أن التسوية التي رتبها صلاح الدين قبل وفاته لم تكن مقنعة للأطراف المختلفة. فالسرعة التي تصرف بموجبها العزيز توحي بأنه كان يدرك جيدًا أن مسألة السيادة كانت مسالة غير محسومة اثر وفاة والده. وان الافضل لم يحاول ان يثير رد فعل عام على خطوة اخيه وانما لجأ الى تشكيل ائتلاف من الحكام الأيوبيين الآخرين ضد الحاكم المصري. فالصراع الايوبي– الايوبي، ليس رهينا بضعف الافضل بقدر كونه مرتبط بعدم نهائية التسوية التي وضعها صلاح الدين.

النقطة الثانية فتتعلق بتوازن القوى بين الافضل حاكم دمشق والعزيز صاحب مصر. فالواضح أن فقدان الافضل للسلطة ومكانته مرتبط بالتفوق الاقتصادي الطبيعي لمصر مقارنة مع غيرها من إلامارات الايوبي0ة، في الزراعة والتجارة ، اذ مكنت لحاكم مصر ببناء جيش أكبر بكثير من منافسيه . وقد أشار المستشرق جب إلى أنه الجيش المصري في زمن صلاح الدين قد تجاوز الـ 7000 مقاتل بينما لا تستطيع دمشق ان تجهز أكثر من الف مقاتل. ([65])، ومن جانب آخر فان صلاح الدين قد انهك خزينة الدولة في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة، وبالتالي فان الموارد المالية التي كانت بأيدي الافضل شحيحة للغاية ولا تمكنه من ان يدخل في صراعات مكلفة ماديا.

وكان التفوق العسكري لمصر يعني إذا كان على دمشق أن تدافع عن نفسها بنجاح ضد أي هجوم مصري ، فلا بد لها من أن تكون قادرة على الاعتماد على دعم الأمراء الأيوبيين الآخرين ، ولا سيما أمراء الجزيرة وحلب. من هذا المنظور ، كان قرار العادل التخلي عن الافضل وتحول دعمه للعزيز كان حاسما في تاكيد خسارة الافضل لدمشق.

النقطة الثالثة تتعلق بتركيبة الجيش الايوبي عشية وفاة صلاح الدين. فقد اكثرت المصادر من الحديث عن دور الفرقتين الصلاحية والاسدية في هذا الصراع. والكرد الذين هم في الغالب مرتبطين بالأسدية. اما الصلاحية فهم مماليك قد جندهم صلاح الدين ، والأسدية ينتسبون لأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين.[66] لقد كان ترك الصلاحية للأفضل واتجاههم الى مصر مؤشرا على اختلال في مركز الافضل، فقد حرضوا العزيز ضد شقيقه في دمشق. فكان ذلك بمثابة السبب المباشر، كما هو موضح فيما سبق .

كما رأينا ، فإن معظم المصادر تنتقد الافضل للأخذ بنصيحة وزيره، حول استبدال رجالات ابيه بآخرين.

إن الاكتفاء بالقول ان الافضل كان غير كفوء ومنشغل بمتعه لا يسهم في تكوين فهم تاريخي. فهذا الحكم يتجاهل التقييم المنصف للوضع السياسي المعقد الذي حدث بعد مغادرة صلاح الدين. فإذا كان صحيحًا أنه لم يكن لديه الخبرة أو ربما المحفزات الضرورية للنجاح السياسي في التنافس مع الأقارب الذين كانوا أكثر مهارة من الناحية السياسية كما في حالة العادل ، أو ورث موارد أكبر في حالة العزيز ، فهو يبدو مع ذلك شخصية أكثر عمقا من الشخصية التي كرستها روايات ابن واصل وابي شامة التي نقلت كثيرا عن العماد الاصفهاني، دون أن توضح حجم السخط الذي رافق صياغته لرواياته. وافضل ما يلخص ذلك كله القول الشهير لسيدنا علي (كرم الله وجهه)

((اذا اقبلت الدنيا على احد اعارته محاسن غيره واذا ادبرت عليه سلبته محاسن نفسه))

الخلاصة والاستنتاجات

1- نجح القائد العسكري يوسف بن ايوب في تأسيس دولة جديدة عرفت بالدولة الايوبية بعد وفاة نور الدين زنكي عام 569 هـ/1174م واضطراب امرائه واختلافهم من بعده.
2- قسم صلاح الدين مملكته بين اولاده الثلاثة الكبار، فأعطى مصر لابنه العزيز وحلب للظاهر، بينما جعل دمشق لابنه الافضل ومنحه لقب السلطنة، ليكون اعلى مرتبة من بقية اخوته. اما اخوه العادل فحصل على حصني الكرك والشوبك الحصينين، فضلا عن مدن اقليم الجزيرة.
3- اشارت المصادر الى وقوع الافضل تحت تأثير وزيره ضياء الدين بن الاثير، الذي اشار عليه باستبعاد امراء ابيه والاعتماد على قادة جدد يتبعونه. فأدى ذلك الى التجاء هؤلاء الامراء الى اخيه العزيز في مصر وتأليبهم اياه على الافضل، فبدأت المشاكل بين الاخوين، وانتهت بخسارة الافضل لدمشق وانكفائه في صرخد.
4- ادت وفاة العزيز في عام 595هـ/ 1200م الى اضطراب جديد، واغراء جديد للأفضل ليعود الى الساحة السياسية من جديد، لكن سوء التخطيط ووقوعه تحت نفوذ الصلاحية ادى الى عواقب سيئة، انتهت به الى الانزواء بعيدا في اقصى الشمال في بلدة سميساط النائية فخرج من المشهد السياسي الايوبي.
5- اوضحت المصادر ان العادل قد استغل الاضطراب الذي وقع بين اخوة صلاح الدين للسيطرة على الحكم، ونجح في نهاية الامر في السيطرة على مصر ودمشق واستعصت عليه حلب وحدها، التي بقيت بأيدي الملك الظاهر بن صلاح الدين.

6- انحت المصادر باللائمة على الافضل واتهمته بسوء التخطيط وقصر النظر السياسي من قبيل الوقوع تحت تأثير وزيره ابن الاثير اولا، وتحت تأثير عمه العادل مما أدى به سلسلة الخسارات المتواصلة

7- وقعت هذه المصادر تح تأثير المؤرخ عماد الدين الاصفهاني، الذي كان ساخطا على الملك الافضل لأنه قرب خصمه الوزير ضياء الدين بن الاثير، وابعده هو عن دائرة النفوذ فقدم صورة قائمة عن الافضل، نقلها عنه المؤرخون اللاحقون امثال ابن واصل، وابو شامة وغيرهم.

8- قدم المؤرخ عز الدين بن الاثير رواية مختلفة عن رواية عماد الدين الاصفهاني في بعض النواحي، اكدت على الطابع التآمري للملك العادل وعدم اخلاصه في دعم الافضل، ووثوق الاخير به ونواياه الحسنة تجاهه

9- أكد ابن الاثير ايضا النزعة التآمرية لفرقتي الصلاحية والاسدية ودورهم في احداث الانشقاق بين ابناء الاسرة الايوبية فهم من اوغر صدر العزيز على اخيه الافضل، وهم من حرض الافضل على القدوم الى مصر وتولي الوصاية على ابن اخيه العزيز وهم ايضا من حرضوه على محاربه عمه العادل في دمشق

10-لم توضح المصادر مسالة تفوق مصر في امكانياتها الاقتصادية والبشرية على دمشق وبالتالي تفوق قوات العزيز على الافضل، فضلا عن أن الأخير قد ورث دولة مثقلة بالديون نتيجة الحرب الجهادية التي قادها صلاح الدين الايوبي في مواجهة الحملة الصليبية الثالثة، فكان ضعف موارد اقطاعاته ذا تأثير مهم على قراراته السياسية لم تلتفت اليه المصادر التاريخية.

الهوامش

[1] محمود ياسين التكريتي، الايوبيون في شمال الشام والجزيرة (بغداد ، دار الرشيد للنشر، 1981)، 225.

[2] هاملتون أ ر جب، صلاح الدين الايوبي: دراسات في حضارة الاسلام، ترجمة يوسف ايبش(بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1973)، ص 207.

[3] احمد بن ابراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تحقيق ناظم رشيد(بغداد، دار الحرية للطباعة النشر، 1978)، ص 317.

[4] ولد صلاح الدين في مدينة تكريت في عام 532ه/ 1137م
[5] محمد بن محمد بن حامد المعروف بعماد الدين الاصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، (بيروت، دار المنار، 2004)،43
[6] نفسه، ص 338.
[7] يقول ابن شداد الذي كان حاضرا في معركة ارسوف القاسيى بين المسلمين وريتشارد قلب الاسد، والتي تقهرقرت فيها بعض قوات صلاح الدين:
كان ممن ثبت الملك العادل والطواشي قايماز النجمي والملك الأفضل ولده وصدم في ذلك اليوم وانفتح دمّل كان في وجهه وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب في ذلك كله
يوسف بن رافع بن تميم بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: جمال الدين الشيال(القاهرة، مطبعة الخانجي 1963)، ص277.
[8] ستانلي لين بول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمة فاروق سعد ابو جابر 0(القاهرة، دار الشرق، 1995)، ص 330.
[9] شهاب الدين المقدسي، عيون الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق ابراهيم الزيبق(دمشق، مؤسسة الرسالة، 1997) ج4، ص422
[10] جمال الدين سالم بن واصل الحموي، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، 1957)، ج3، ص8
[11] Stephen Humphreys, From Saladin to Mongol,(Albany, state of new York university press,1977), p.51.
[12] ابن واصل ، مفرج الكروب، ج3، ص51
[13] احمد بن ابراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، تحقيق ناظم رشيد(بغداد، دار الحرية للطباعة النشر، 1978). ، ص 319
[14] ابو شامة، عيون الروضتين، ج4، 443.
[15] ابن واصل، مفرج الكروب،ج3، 56
[16] نفسه، ج3، ص93
[17] ابو شامة، عيون الروضتين، ج4، 457.
[18] التكريتي، الايوبيون ، ص 268.
[19] الحنبلي، شفاء القلوب، ص 322
[20] المقريزي، ج1، ص264.
[21] ابن واصل، مفرج الكروب، ج3 ، ص132.
[22] ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي المعروف بسبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: ابراهيم الزيبق، (دمشق، دار الرسالة العالمية، 2013)، ج 22، ص92-92
[23] الحنبلي، شفاء القلوب، ص 331
[24] عز الدين علي بن الحسن بن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري(بيروت، دار الكتاب العربي،1997) ، ج10، ص 224.
[25] نفسه، ص225.
[26] ابو شامة، عيون الروضتين، ج4، ص420
[27] ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص39.
[28] ابن واصل، التاريخ الصالحي، تحقيق عمر عبد السلام تدمري،(بيروت، المكتبة العصرية،2010) ج1، ص 251.
[29] نفسه، ص 253.
[30] نص ابن واصل في هذا الشأن:
"هؤلاء خواص السلطان وينظرون اليك بتلك العين ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين ، وهم – بحكم المعرفة لك من الصغر- يتبسطون ويشتطون ولا يقنعون ، وأعمال دمشق لا تسعهم، وجميعها لا تقنعهم، والأعمال المصرية لهم أوسع واوسع؛ وأما الغرباء ، فإنهم يقنعون بأي شيء ويعترفون بحقك ويعظمونك"
ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص11
[31] ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، 41-42.
[32] يقول الاصفهاني في شأن ذلك:

ورأى الْأَفْضل أن يكْتب إلى أخيه بكل ما يحب من إعلاء كلمته والاجتماع عليْه ويكون الْأَفْضل من بعض القائمين بين يديْه طلبا لتسكين الْفتن ورغبة في ذهاب الاحن فأشير عليْه بغيْر الصّواب وقيل أنْت الْكبير وإليْك التّدْبير فجد واجتهد ولا تعلم أصْحابك بهذا الخور الّذي داخلك والجبن الّذي نازلك ونحن بين يديك وكلنا عاقدون بالخناصر عليْك"

نقلا عن : ابو شامة، عيون الروضتين، ج 4، 406.

[33] ابن واصل، مفرج الكروب، ص42

[34] ابو شامة، الروضتين ، ج4، ص406.

[35] ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص 40.

[36] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة، ج6، ص 123.

[37] المقريزي، السلوك، ج1 ، ص232.

[38] عماد الدين بن اسماعيل ابو الفدا، المختصر في اخبار البشر(القاهرة، المطبعة الحسينية،1907) ج3، 92.

[39] جب، صلاح الدين، ص 205.

[40] قاسم عبده قاسم، في تاريخ الايوبيين والمماليك، (القاهرة، عين للدراسات والبحوث، 2010)، ص 82

[41] ابن الاثير، الكامل ، ج 10 ، ص149

[42] علي حسين علي، دراسة في مخطوطات رسائل ضياء الدين بن الاثير، مجلة جامعة كركوك للدراسات الانسانية، السنة 2009، ع 4، ص 228-230.

[43] ابن الاثير، الكامل،ج10 ص137

[44] نفسه، ج 10، ص139

[45] نفسه، ج10، 141.

[46] يقول ابن الاثير على لسان الظاهر مخاطبا اخيه الافضل:

أخرج عمنا من بيننا فانه لا يجي علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد، وانا اعرف به منك، فانه عمي مثل ما هو عمك، وانا زوج ابنته ، ولو علمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أولى به منك"

نفسه، ج 10، ص 141.

[47] نفسه، ج10، ص 140

[48] نفسه،ج10، ص141.

[49] نفسه، ج10، ص141.

[50] نفسه،ج10، ص141-142.

[51] نفسه، ج10، ص 141.

[52] نفسه، ج10، ص142

[53] نفسه، ج10، ص157

[54] جب، صلاح الدين، ص 96.

[55] ابن واصل، مفرج الكروب ، ج4، ص61

[56] نفسه، ج4، ص 155-156.

[57] نفسه ، ج3 ، ص 44

[58] نفسه، ص، ص51.

[59] ابو شامة، عيون الروضتين، ج4، ص425

[60] ابن الاثير، الكامل، ج10، ص 144.

[61] ابو شامة، عيون الروضتين، ج4 ، ص407.

[62] جب، صلاح الدين،227.

[63] ابن الاثير، الكامل، ج10، 140

[64] عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 170

[65] جب، صلاح الدين، ص 164-165.

[66] جب، صلاح الدين، ص83.

قائمة المصادر والمراجع

- Abu al-Feda, Imad al-Din ibn Ismail Abu al-Fada, al-Muqtasar fi Akhbar al-Bishr (Cairo, Husayniyyah Press, 1907.(
- Abu Shama, Shihab al-Din al-Maqdisi, Ayyoun al-Rawdatain in the news of the two states al-Nuriyya and al-Salih, by Ibrahim al-Zeebq (Damascus, The Resala Foundation, 1997.(
- Al-Hanbali, Ahmed Bin Ibrahim, Healing the Hearts in the Virtues of Bani Ayyub, by Nazem Rashid (Baghdad, Freedom House for Printing Publishing, 1978.(
- Ali, Ali Hussain, A Study in the Manuscripts of the Letters of Dia al-Din Ibn al-Atheer, Kirkuk University Journal of Human Studies, Year 2009, Issue 4, pp. 228-230.
- Al-Isfahani, Muhammad bin Muhammad bin Hamid, known as Imad al-Din al-Isfahani, Al-Fath Al-Qassi in Al-Fath Al-Qudsi, (Beirut, Dar Al-Manar, 2004.(
- Al-Maqrizi, Taqi al-Din Ahmad bin Ali, The Conduct of Knowing the Countries of Kings, Edited by Muhammad Abd al-Qadir Atta (Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1997.(
- Al-Tikriti, Mahmoud Yassin, the Ayyubids in the North of the Levant and the Jazira (Baghdad, Al-Rasheed Publishing House, 1981), 225.
-
- Ibn Shaddad, Yusef bin Rafi` bin Tamim, Al-Nawader Al-Sultania and Al-Mahasin Al-Yusufiyah, edited by: Jamal Al-Din Al-Shayal (Cairo, Al-Khanji Press 1963.(
- Ibn Taghri Bardi, Abu al-Mahasin, the flourishing stars of the kings of Egypt and Cairo, (Egypt, Dar al-Kutub, DT.(
- Ibn Wasel, Jamal al-Din Salem bin Ali, The Salihist History, Editing by Omar Abd al-Salam Tadmouri, (Beirut, Modern Library, 2010.(
- Ibn Wasel, Mafrej Al-Karoub in Akhbar Bani Ayyoub, edited by: Jamal Al-Din Al-Shayal (Cairo, National Library and Archives, 1957.(
- Jeb, Hamilton AR, Salah al-Din al-Ayyubi: Studies in the Civilization of Islam, translated by Yusef Ibish (Beirut, The Arab Foundation for Studies and Publishing, 1973.(
- Qassem Abdo Qassem, In the History of the Ayyubids and the Mamluks, (Cairo, Ain for Studies and Research, 2010.(
- Sabt bin al-Jawzi, Abu al-Mudhaffar Yusef bin Qazughli known as Basbat ibn al-Jawzi, Mirror of Time in the Chronicle of Notables, edited by: Ibrahim al-Zeebq, (Damascus, Dar al-Risalah al-Alamiya, 2013.(
- Stanley Lynn Paul, Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, translated by Farouk Saad Abu Jaber 0 (Cairo, Dar Al Sharq, 1995.(
- Stephen Humphryes, From Saladin to Mongol, (Albany, state of New York university press, 1977), p.51.